هل يُغني الحذر من قدر؟

الإيمان بالقدر صفة من كمال التوحيد، إذا قدَّر الله أمرًا كان مفعولاً لا محالة من وقوعه، ونحن عندما نحذِّر من حوادث المنازل ونؤكِّد على الوقاية منها للحيلولة دون وقوعها، فلا يعني أنه سيمنع المقسوم المقدَّر من الوقوع، لكن نعود ونذكِّر أن الإسلام أمر باتخاذ تدابير الحماية وأوصى بالمحافظة على النفس والمال بل عُدّتْ من مقاصد الدِّين الحنيف.

فالحديث المشهور عن رسول الهدى: "**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ...**".

فالرعاية تشمل البيت وتعهّده بما يلزم لحمايته، وعدم تركه في مهبّ الريح دون رعاية والعناية بسلامته؛ ليكون –بإذن الله– في مأمن عما يجلب الشقاء والتعاسة، فإنْ قدِّر أن حصل حادث بعد أن أحيط بالأسباب الواقية وعمل تدابيرها فذاك أمر الله وما شاء فعل، فالإنسان مأمور بالسعي وعمل ما في وسعه عمله قدر استطاعته.

إذن: الحذر مطلوب بشروطه، وما عدا ذلك بيد الله المدبِّر لشؤون عباده، فيكون الإنسانُ قد عمل الذي عليه والباقي على الله. فالحذر ينفع لكنه لا يمنع، وهنا يأتي الحذر كواجب كما أوصى الله عباده بقوله تعالى: ﴿ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾[1]. أي: احتاطوا. وكما قال رسول الله ﷺ: "**اعقلها وتوكل**". فالأخذ بالأسباب لا ينافي معنى التوكُّل.

(١) سورة النساء، الآية: ٧١.

وهذا رجل يسأل رسول الله ﷺ : يا رسول الله، أرأيتَ أدوية نتداوى بها ورُقىً نسترقي بها أتردُّ من قدر الله شيئًا؟ قال عليه الصلاة والسلام: "**هي من قدر الله**".

والإيمان بقضاء الله وقدره من تمام الإيمان، والحرص واجب وهو بذل الجهد واستفراغ الوسْع وعدم التماهل والتواني فيما يجب عمله، فحرص الإنسان على ما ينفعه من قبيل المندوب إليه، والحرص لا ينفع إلا بالاستعانة عليه، فالتقصير ينافي معنى الحرص.

ومصداق ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : ((**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**)). وشاهدنا هنا تتمة الحديث: ((**وَاحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَلا تَعْجَزْ، فَإِنْ غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ صَنَعَ، وَإِيَّاكَ وَلَوْ؛ فَإِنَّ اللَّوَّ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**)).

قضت حكمة الله أنْ يكون هناك حوادث قدرية، ليس في وُسْع الإنسان منعها أو دفعها عنه، وهناك حوادث جعل الله من الأسباب ما يمكن دفعها بها أو تفادي وقوعها.

فالأولى : من قبيل الحوادث الكبرى كالأمطار الغزيرة والزلازل والعواصف المدمرة والبراكين وما في حكمها.

والثانية : تلك الحوادث الناشئة عن التعاملات الإنسانية والنشاطات البشرية كحوادث الطرق والحرائق وحوادث المنازل وأماكن العمل وما يطرق المسامع وتتناوله وسائل الإعلام وتتداوله المجالس من حوادث اعتدنا على وقوعها يوميًّا بفعل الإنسان

وتداولاته، فهذه حوادث جعل اللهُ سبل الوقاية منها مخرجًا؛ لمنع وقوعها أو مدافعتها بإجراءات حماية ووسائل مكافحة؛ لتلافي وقوعها أو الحدّ من وطأتها، فالإنسان أمامها ليس مخيَّرًا أن يفعل أسباب منعها أو لا يفعل وقوعها قدر، وعدم وقوعها أيضًا قدر كدفع المرض بالتداوي، وعلاج أسباب العلة بأسباب الدواء، وكلٌّ بعلم الله وقدره.

وكما جاء في الأثر عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– حين قال: نهرب من قدر الله إلى قدر الله. فالإنسان بين الأمرين تحت قدر الله ومشيئته، فالحدث قدر ومنعه بالأسباب قدر.

تذكيرات تحفيزية:

يقول الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[2]

فمن قبيل أن الإنسان مُعرَّض للنسيان أو قد لا يكترث ببعض الالتفاتات أو ما يعتريه من غفلة وما يتلبث به من إهمال مثل هذه من سمات إنسانية حثَّ تعالى على التذكير بها؛ لتنبيه الغافل وإيقاظ الناسي، وليعتبر اللاهي ويتذكر المشغول؛ لينهض هذا وذاك

---

[1] سورة الذاريات، الآية : ٥٥.

[2] سورة ق، الآية : ٣٧.

مُستعلمًا ومُستنفضًا لما ينفعه ويذكي حياته ويزكي معاشه ويحفظ كيانه.

هنا سنورد أقوالاً وسنسرد عبارات ناضجة وحِكَمًا هادئة وعِبرًا مضيئة ومواعظ مرشدة موزونة، قالها أهل الدراية وصاغها ذوو الخبرة، ونسقها أصحاب تجربة بشؤون السلامة؛ لتعيها الأفئدة وتستوعبها العقول.

فالذكرى ناقوس، يدق رنينه عالم الغفوة، ملهمة للقلب، شاحذة للنفس، محرِّكة الوجدان، تستقبلها المسامع، وتطرق لها الأذهان، تنشط الذاكرة وتسترعي الانتباه.

الذكرى فحواها عِبر، وجوهرها حِكَم، ومضمونها عظات، منطوقها تلميح، وأحيانًا تصريح، صداها فطن لمن تفطَّن، أو تحذير من خطر في مكامن الخطر.

فقالوا فيما قالوا، وإليك غيضًا من فيض مما قالوا:

- أسلم تسلم، فمن ابتغى السلامة أمن من غوائل الخطر.
- من الأدعية: اللهم إني أسألك العافية في الدِّين والدنيا والآخرة، والعافية هنا: السلامة.
- السلامة أمانة. أي: أمانة في عنق رب الأسرة.
- السلامة لباس العوافي من الخوافي، فالبسها ولا تخلعها، فخلعها يعني عدم الوفاء بها.
- السلامة مطية، فلكي تمتطيها هيّئها بفاعلية.
- السلامة أمان من شرور المحدثات.
- أمّن منـــزلك؛ لتأمن نزلك.

- احذر تسلم، أي: عن مغبة الحوادث فإنها مهلكة.
- السلامة سكينة، فمنْ سكن في مأمن أمن في مكمن.
- إذا سلمتَ أمنتَ، وإن أمنتَ بتَّ قرير العين ساكن القلب.
- أغلق منافذ الأذى وسدّ ثغور الضرر واردم مسالك القلق، تعشْ في منـــزلك بسلام.
- انشد السلامة تُوهب لك الحياة –بإذن الله– معافى من الحوادث وآفاتها.
- اتق أربعًا لتنعم بأربعة: الغفلة باليقظة – الخطر بالأمان – الإهمال بالحذر – إحساس الخطر لدرء الخطر.
- السلامة غُنْم والحوادث غُرْم، فاغتنمها قبل أنْ ينـــزل بساحتك غُرمها.
- الوقاية حصانة.
- ملحوظ الخطر نذير حدث.
- الإهمال قربة من دوائر الألم.
- السلامة سُلَّم نجاة، فأقم سُلَّمك على قوائم قوية.
- السلامة نعمة، فاحفظ النعمة قبل أن تنقلب نقمة.
- السلامة بصيرة.
- حاسب قبل أنْ تُحاسب. أي: قبل أن تحاسب نفسك، فحساب النفس عسير ووقْع ألمه غير يسير.
- سلامتك بيدك، فلا تفرط فيها.
- من حذر سلم ، ومن لم يحذر ندم.
- من عمل وتوكَّل فاز ، ومن عَدِم العمل وتواكل خاب.

تلك تذكيرات تقف بك وقفة تأمل أو برهة تدبُّر، تقي بها بيتك غمرة مؤسفة ومعاناة مؤلمة.

تصور لحظة الحدث! كيف سيكون حالك؟ تفاعل مع تصوِّرك قبل أنْ تضحى مأزومًا، ووضعك مكلوم، وحالك مغبون، وخاطرك مكسور، وبالندم محسور.

إذن: ساكن السلامة تسكنك، وهاجسها تهاجسك، والبس ثوبها يلبسك، اسلكها تسلكك، فالحياة هاجسها السلامة والخطر هاجس الحسرة والندامة.

حارسها تحرسك، تكُنْ لك حارسًا أمينًا وبعد الله ضامنًا، فهي حارس حياتك ومأمن مضجعك وضامن مالك وحليف معاشك وطارد روعك، فهي لك ما دمتَ لها ومعك ما كنتَ معها، إنْ تهجرها تهجرك وإنْ وصلتها وصلتك وإنْ قطعتها قطعتك.

كل ذلك وغيره بعون الله لك معينٌ وواقٍ مبين والتوكل عليه وتوفيقه وغايته.

لنتذكر:

- أن حوادث الحريق يمكن تلافيها بقليل من الحذر، وشيء من الانتباه.
- الحريق يبدأ بسيطًا وباستطاعتنا السيطرة عليه إنْ تعلمنا الطرق السليمة التعامل معه.
- يكفي لإطفاء الحريق قدح من الماء عند اشتعاله من لحظته الأولى، وإن لم يقدر عليه فسوف يتضاعف، ففي لحظته الثانية

سوف يحتاج إلى إناء (سطل) من الماء، وفي اللحظة الثالثة يحتاج إلى كمية من الماء توازي برميلًا.

- بعدها يستوحش ولا يكفي له مقدار طن وجهود مضنية للقضاء عليه، والاستنتاج العام لهذا الترتيب الكمي هو تأكيد أن مداهمة الحريق ومسارعته في لحظته الأولى أمر في غاية الأهمية قبل أن تتصاعد شعلته، عندها يتطلب جهودًا ووسائل مضاعفة.
- الحريق نتاج تفاعل عناصره الأساسية:
  - المادة المحترقة – حرارة – أكسجين.
  - يتم إطفاؤه بعزل إحدى تلك العناصر. إما بالتبريد بمادة مناسبة لخفض درجة حرارته، أو إبعاد المادة موضع الحريق، أو حجب الأكسجين عنه.
- الحريق بطبعه مفجع، الخوف أو التردد في اقتحامه في الوقت المناسب يؤدي إلى ارتباك، ويفضي إلى تصرفات عشوائية قد تصيب أحياناً لكنها في الغالب تخيب فتزداد النار التهابًا ، فهي لا تعدو أنْ تكون تعاملاً مرتبكًا ينتج عنها حوادث جانبية أشد إيلامًا من الحريق نفسه.
- أسباب الحريق تترعرع حال الإهمال والغفلة وسوء الترتيب والنظافة.
- التصرفات غير المنتظمة أو المرتجلة لا تساعد على قمعه مما يسمح له بالاتساع.
- إذا كان الخطر نذير شؤم، فإن السلامة مبشر سعد.
- إذا كان الندم ألماً ، فالفأل أمل.

- إذا كان الخطر مؤشرَ هدم ، فإن السلامة علامة بناء.

الحادث إنْ وقع ترتَّب عليه مكاره متنوعة ومآسٍ في الأنفس وإصابات في الأبدان وإعاقة الحركة وخسران في الأموال وفقْد أهل وخلان ، ومنْ لم يُصبْ بأيٍّ من تلك وكتب اللهُ له النجاة فقد يصيبه الضرر النفسي؛ جراء هول الحادثة وفقدان الأحبة أو إصابتهم، ناهيك عن الخسائر المادية. والأمَرُّ من ذلك حين تقع الحوادث في المنـــزل في وقت يتزامن مع وجود بعضهم كالأبناء والصغار والعجزة بداخله، بينما خارجه بعضهم كالأب والأم والإخوان الكبار. فعندما يصل اليهم نبأ وقوع حادث في المنـــزل تصور كم من الهلع سيتولد خصوصًا الأب والأم الذين تركوا أطفالهم وخرجوا للنـــزهة أو لقضاء شأن من شئونهم !

إن مجرد الخبر سيكون كالصاعقة على مُتلقيه.

هكذا الحوادث لا تعطف على صغير ولا تحابي كبيرًا ، الكل أمام فداحتها سواء ، تُكْلَم بها النفوس وتنحبس لها الأنفاس، لا يتجاوزها إلا منْ حسب ضدها.

عبارات متقابلة

- إذا كان الخطر نذير شؤم .. فالسلامة عرض سعد.
- إذا كان الخطر معولَ هدم .. فالسلامة أداة بناء.
- إذا كان الخطر شرًّا عميمًا .. فإن السلام خيرٌ مقيم.
- إذا كان الخطر وعيد بشر .. فإن السلامة وعدٌ بخير.
- إذا كان الخطر عدو المنـــزل .. فالسلامة صديق.
- إذا فارقتْ السلامة المنـــزل عشعش في أرجائه الخطر.
- إذا كان الخطر عاصفة .. فالسلامة نسيم .
- إذا كان الخطر مرضَ المنـــزل فالسلامة طِبُّه.
- إذا كان الخطر يجلب البؤسَ .. فالسلامة مدحضة له.

فمنْ استسهل معاني المتعارضات ووعى فحوى المتقابلات أدرك أن السلامة توأم الحياة ، تطيب بها وتجلب لها الهناء ، ويهدأ السكون ، شجرة وارفة الظلال، ظلالها أمان ومكتسب مقام، تذر سعادة وسلام.